

الحرب سرقت عمري

بقلم / ضحى

~~~~~

فيتامين سي

شبكة روايتي الثقافية

~~~~~

من مذكراتي قبل عام..

فتحت درجي و أستخرجت منه صورة قديمة كنت قد خبأتها منذ زمن
و أخذت أتمعن في تفاصيلها بدقة ،

فيها نجلس أنا و إختي متجاورين و مصطفى جنباً إلى جنب و يقف
أبي خلفنا و على وجهه ابتسامة لطيفة يجامل بها عدسه المصور ،

وَأَضَعَا يَدَهُ عَلَى كَتِفِ أُخْتِي وَ مُسَبِّلُ يَدَيْهِ الْأُخْرَى إِلَى جِوَارِ بِنِطَالِهِ
الْعَكْسَرِيِّ.

أَخَذْتُ أَتَحَسَّنُ بِ يَدَيَّ وَجُوهَ أَخَوَتِي وَ ابْتِسَامِهِ أَبِي فَ شَعَرْتُ كَمَا لَوْ
أَنَّهُمْ جِوَارِي!

و دَخَلْتُ عَمِيقًا فِي تَفَاصِيلِ الصُّورَةِ لِ أُخْرِجَ مِنْ جَعْبَتِي كُلَّ مَا أَمْلَكُهُ مِنْ
ذِكْرِيَّاتٍ عَنْهَا ،
كَأَنَّ أَبِي ضَاطِبًا عَسْكَرِيًّا عَظِيمَ الشَّانِ بَيْنَ أَصْحَابِهِ ، شَدِيدُ الطَّبَاعِ ، قَلَمًا
تَرَاهُ يَبْتَسِمُ أَوْ يَتَحَدَّثُ

وَ أَكْثَرُ مَا يُلْفَتُ النَّظَرُ فِيهِ هُوَ شَارِبُهُ الْكَثِيفُ الَّذِي يَبْدُو كَالْهَلَالِ يَغْطِي
شَفَتَهُ الْعُلْيَا وَ يُضْفِي عَلَى مَظْهَرِهِ الْحِدَّةَ.

كُنْتُ صَغِيرَةً حِينَ فَقَدَهُ حَتَّى أَنِّي بِ الْكَادِ أَتَذَكَّرُ مَعَالِمَ وَجْهِهِ وَ لَكِنِّي لَا
أَنْسَى نَظْرَتَهُ الْحَادَّةَ حِينَ أْتَمَادِي بِ شَقَاوَتِي وَ ضَحَكْتِي الْعَالِيَةِ

فَيَرْمِقُنِي بِعَيْنِيهِ لِ أَكْفَ ، وَ كُنْتُ أَذْعُنُ لَهُ فَوْرًا خَوْفًا مِنْ عِقَابِهِ ،

إِعْتَادَ زِيَارِنَا بَيْنَ الْفِينَةِ وَ الْآخِرَى لِ يَطْمَأَن عَلَيْنَا وَ يُعَاوَدَ الْإِلْتِقَاءَ بِـ
عَلْمِهِ ،

وَ كَلَّمَا بَادَرْتُ بِـ سُؤَالِ أُمِّي عَنْهُ مُتَمَلِّمَةً مِنْ غِيَابِهِ الْمُسْتَمِرَّ أَجَابَتْنِي وَ
هِيَ تَبْتَسِمُ (إِنَّ وَآلِدِكَ الْبَطْلُ يَخُوضُ حَرْباً مَعَ الْمُحْتَلِّ وَ يَجِبُ أَنْ تَكُونِي
فَخُورَةً بِهِ)

فِيدُورُ فِي نَفْسِي سُؤَالٌ مُلْحٌ (وَ مَتَى سَـ نَنْتَهِي مِنْ هَذَا ؟ / !)

أَذْكُرُ جِيداً آخِرَ زِيَارَةٍ لَهُ قَبْلَ أَنْ نَفْقَدَهُ .. كُنْتُ فِي الْخَامِسَةِ أَوْ السَّادِسَةِ
مِنْ عُمْرِي ،

وَ قَدْ إِصْطَحَبْنَا جَمِيعاً لَـ نَلْتَقِطَ صُورَةً مَعَهُ ، وَ كَانَتْ هَذِهِ الْمَرَّةُ الْأُولَى
الَّتِي يَطْلُبُ مِنَّا ذَلِكَ

فَ وَقَعَ طَلْبُهُ هَذَا مَوْقِعاً كَبِيراً فِي نُفُوسِنَا مِنْ شِدَّةِ السَّعَادَةِ بِـ رِفْقَتِهِ ،

فَ كَانَتْ هَذِهِ الصُّورَةُ الَّتِي بَيْنَ يَدَيِ الْآنَ ،

أَنَّهُ لَمْ تَمْضِ إِلَّا أَيَّامٌ حَتَّى تُوفِيَ وَآلِدِي بَعْدَهَا ،

وَ تَحَلَّمْتُ بَعْدَ هَذِهِ الْمُصِيبَةِ مَا لَا طَاقَةَ لـ مِثْلِي بِاحْتِمَالِ مِثْلَتِهِ ، فَكُنْتُ
كُلَّمَا تَذَكَّرْتُهُ بَكَيْتُ كَثِيراً لِأَنَّهُ رَحَلَ وَلَمْ أُوَدِّعْهُ ،

لَسْتُ أَنْسَى ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ _ صَدِيقُ وَآلِدِي الْمُقَرَّبُ _ إِلَى

مَنْزِلَنَا بِزِيَارَةِ غَيْرِ مَعْهُدَةٍ ،

دَخَلَ عَلَى عَجَلَةٍ وَأَجْمَأَ مُكْتَتِبًا .. يُغْطِي الشُّحُوبَ وَالْهَلَعَ مَلَامِحَهُ
الْوُدُودَةَ

فَاسْتَقْبَلَهُ عَمِّي الْكَبِيرُ وَ أَخِي وَ أَخْذُوهُ مَعَهُمْ لِدَاخِلِ الْمَنْزِلِ

كُنْتُ مُنْهَمَكَةً بِاللَّعِبِ خَارِجًا فِي حَديقَةِ الْمَنْزِلِ .. اسْتَمْتَعْتُ بِتَحْرِيكِ
الْإِرْجُوحةِ بِقُوَّةٍ

وَكَلَّمَا ارْتَفَعْتُ أَكْثَرَ شَعَرْتُ بِأَنِّي أَطِيرُ بَعِيدًا عَنِ الْأَرْضِ .. ثُمَّ أَعُودُ وَ
أَنْزِلُ إِلَيْهَا

وَلَسَبَبٌ مَا كُنْتُ أَحَبَّ الْأَزْيِزِ الْمُزْعِجِ الَّذِي تُصْدِرُهُ السَّلَاسِلُ الْمُتَدِيلَةُ ..
وَالْمُرْتَبِطَةُ بِمَقْعَدِي

رُغْمَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَرُوقُ أَحَدًا غَيْرِي ،

__ هَلْ تَسْتَمْتَعِينَ بِاللَّعِبِ يَ صَغِيرَةٍ ؟

نَعَمْ يَا عَمَّ .. صَنَعَ وَالَّذِي هَذِهِ الْإِرْجُوحَةُ بِ نَفْسَةٍ ... لَمْ لَمْ يَأْتِي هَذِهِ
الْمَرَّةَ مَعَكَ ؟

هَلْ تَسْمَحِينِ لِي بِ الْجُلُوسِ مَعَكَ عَلَى الْأُرْجُوحَةِ ؟

بِ الطَّبَعِ يَا عَمَّ ،

وَجَلَسَ مُحَمَّدٌ جَوَارِيٍّ وَ أَخَذَ يَعْثُ بِ شَعْرِيٍّ وَ يَخْبِرُنِي كَمْ يُحِبُّ اللّهُوَ مَعَ
الْأَطْفَالِ

وَكَيْفَ أَنْ وَالَّذِي لَا يَنْفَكُ يَذْكُرُنَا أَمَامَهُ ، وَ أَبَادِرُهُ بِ أَبْتِسَامَةٍ خَجُولَةٍ وَ
أَسْتَمِعُ لِ حَدِيثِهِ بِ أَهْتِمَامٍ شَدِيدٍ

وَ أُحَاوِرُهُ فَيَأْنِسُ بِ كَلَامِي وَ فِطْنَتِي رُغْمَ صِغَرِ سِنِي ،

ثُمَّ كَرَّرْتُ سُؤَالَي عَنْ وَالَّذِي فَ تَتَهَدَّى وَ نَهَضَ مِنَ الْمَقْعَدِ ،
وَبَدَأَ يَهْزُ الْأُرْجُوحَةَ بِ تَأْنِيٍّ وَ بَصَرُهُ شَارِدٌ نَحْوَ أَفْقِ السَّمَاءِ

ثُمَّ تَتَهَدَّى مُجَدِّدٌ وَ قَالَ:

__إِنَّ وَآلَكَ يَا صَغِيرَهُ .. قَرَّرَ الْعِيشَ فِي السَّمَاءِ

__فِي السَّمَاءِ .. ؟

__نَعَمْ .. كَلَّ الْأَشْيَاءَ الْجَمِيلَةَ ، فِي مَكَانٍ يَأْنِسُ بِهِ كُلُّ مَنْ يَرَاهُ وَلَا

يُرِيدُ مُغَادَرَتَهُ

__وَلَكِنَّهُ سَدَّ يَعُودُ .. أَلَيْسَ كَذَلِكَ ؟

__إِنَّهُ مَوْجُودٌ دَائِمًا مَعَكَ هُنَا أَلَا تَرِيهِ ؟

__لَا .. لَسْتُ أَرَاهُ

__مَم ... إِذَا أَغْمَضْتُ عَيْنِي .. هَلَا فَعَلْتَ ؟

__لِمَاذَا ؟

__لِأَنَّ وَآلَكَ الْآنَ .. أَصْبَحَ مِثْلَ الدَّخَانِ يَا صَغِيرَتِي .. لَا يُمَكِّنُ أَنَّ تَرِيهِ

إِلَّا إِذَا أَغْمَضْتُ عَيْنِي .. ،

__الآنَ سَدَّ أَغْمَضْتُ عَيْنِي ..

مَم...

إِنِّي أَرَاهُ أَمَامِي يَبْتَسمُ وَيَبْتَعدُ قَلِيلًا .. بِلَا أَيْدِي وَلَا رِجْلَيْنِ .. يَطْفُو فِي

الْجَوِّ أَمَامِي .. يُشَبِّهُ الْأَشْبَاحَ ..

ثِيَابُهُ كَأَنَّهَا خَاوِيَةٌ مِنْ جَسَدِهِ .. وَرَأْسُهُ هَشٌّ يُشَبِّهُ الْغُيُومَ .. وَ يَبْدُو

مُتَعَبٌ كَثِيرًا .. فَ عَيْنَاهُ حَزِينَةٌ

بَدَأَ يَتَلَاشَى وَ يَبْتَعدُ ، ..

لَقَدْ غَابَ عَنْ نَظْرِي ! ..

ثُمَّ أَنْتَفَضْتُ مِنَ الْأَرْجُوحةِ وَ فَتَحْتُ عَيْنَايَ وَسَأَلْتُهُ بِ نَبْرِهِ تَشْبَهُ التَّوَسُّلِ

:

__ هَلْ سَيَعُودُ يَا عَم ؟

__ بِالطَّبَعِ سَيَعُودُ .. فَهُوَ لَا يَرَحُلُ إِلَّا إِذَا رَغِبْتَ أَنْتِ بِذَلِكَ ..

__ وَ لَكِنِّي لَا أَرْغَبُ !

__ إِذَا تَذَكَّرْتُ أَنَّهُ مِثْلُ الدُّخَانِ .. وَيَجِبُ أَنْ تُغْمِضِي عَيْنَيْكَ لِتَرِيهِ !

مرت الأيام ..

كَبُرْتُ وَ أَنَا أَقْتَاتُ مِنْ هَذِهِ الْكِذْبَةِ .. حَتَّى وَصَلْتُ مَرَحَلَةَ الرُّشْدِ فَ
عَرَفْتُ مِنْ أَمْرِ وَالِدِي الْحَقِيقَةِ ،

فَ ضَاقَ صَدْرِي إِلَى حَدِّ الشُّعُورِ بِ الْإِخْتِنَاقِ وَتَمَنَيْتُ لَوْ يَبْقَى ذِهْنِي كَ
إِدْرَاكِ الْأَطْفَالِ فَ أَصْدَقُ مُجَدِّدًا أَنْ وَالِدِي مَوْجُودٌ حَوْلِي .. وَ هُوَ كَ
الدُّخَانِ !

هَذِهِ كَانَتْ أُولَى خَسَائِرِي وَ أُولَى أَنْتَصَارَاتِ الْحَرْبِ

وَ أَسْتَمِرُّ الضُّعْفَ يَنْخَرُ جَسَدِي .. وَ الْخُوفَ يَنَالُ مِنِّي

وَ أَقْدَامُ الْغُزَاهِ تَدُوسُ سَنَابِلِي .. وَ تَطَالُ أَيْدِيهِمْ أَحْلَامِي فَ يَغْتَالُونَهَا قَبْلُ
أَنْ يُكْتَبَ لَهَا أَنْ تَتَحَقَّقَ

وَ طَالَتْ كُلُّ جَمِيلٍ وَكَلَّ عَزِيزٌ عَلَيَّ فَ دَمَرُوهُ

سَرَقُوا مِنِّي الْمَاءَ وَ الْهَوَاءَ وَ الْأَرْضَ وَ الشَّمْسَ ،

سَرَقُوا أَحْلَامِي أَكْبَرَهَا وَ أَصْغَرَهَا .. حَتَّى صِرْتُ تَائِهَةً مُتَخَبِّطَةً كَ
الْمَحْمُومِ

سَرَقُوا مِنِّي عِزَّتِي وَ رَمَوْني أَبُوسُ أَقْدَامُ الْحُثَالَةِ طَالِباً لُقْمَةً تَسُدُّ
الرَّمَقَ، وَ تُمَسِّكُ الْحَيَاةَ

لَمْ يَبْقَ لِي سِوَى قَلَمِي

أَكْتُبُ وَ يَدَايِ تَرْتَجِفَانِ .. خَوْفَ أَنْ يَغْتَالَوْهُ مِنِّي

فَ أَعْجَزُ عَنْ شَتَمِ الْحُرُوبِ .. وَ مُوَآسَاةِ قَلْبِي

وَ لَسْتُ أَدْرِي لِمَ أَهْدَرُ وَقْتِي بِ الْحَدِيثِ عَنْهَا _ عَنْ الْحُرُوبِ _
وَ قَدْ سَرَقَتْ عُمْرِي !

رُبَّمَا هِيَ الْحَاجَةُ .. أَوْ الْخَوْفُ ..
وَ رُبَّمَا الْحَنِينُ

"

كُلُّ شَيْءٍ مِنْ نَسْجِ الْخَيَالِ .. وَضَعْتَهُ لَأَنِّي أَفْتَقِدُ وَآلِدِي بِ شِدَّةٍ

مَوْجُودٌ لَكِنَّهُ غَيْرُ مَوْجُودٍ !

رَأَيْكُمْ يُهْمَنِي كَثِيرًا وَإِنْ كَانَ نَقْدًا بَسِيطًا

فَ هَذِهِ الْمَرَّةُ الْأُولَى الَّتِي أَكْتُبُ فِيهَا قِصَّةً وَ أَكْمِلُهَا لِ النِّهَايَةِ " ٨٨

حُبِّي

النِّهَايَةُ

فِي الْمَدِينَةِ